٩ قيس بن سعد سياسى روض الإسلام دهاءه

على الرغم من أن مصر لم يَشْرُف ثراها برفات الصحابى الجليل قيس بن سعد ابن عبادة الخزرجى، فإنَّ تاريخ الإسلام بها لايمر مروراً عابراً على اسم مَنْ كان والياً عليها من قِبَلِ الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه. إن بلاد مصر من أقصاها إلى أقصاها لاتنسى هذا الصحابى الذى رفع راية الحق والعدل والرحمة بعد تحريرها فى كل شبر فيها، وتجسيداً لهذه المعانى جميعها فلا تخلو محافظة من محافظات مصر من شارع أو ميدان يحمل اسم هذا البطل العظيم.. عرفاناً وتقديراً لمكانته فى الإسلام بصفة عامة، وقدراته الشخصية بصفة خاصة، وهذه القدرات التى أفاض فى الحديث عنها المؤرخون القدامى والمفكرون المُحْدَثُون، وفى مقدمتهم المفكر خالد محمد خالد، والكاتب عبد الرحمن الشرقاوى، فيما كتباه عنه، إما بصورة مباشرة أو بأخرى غير مباشرة. وفى كل الأحوال لاتنسى هذه الكتابات وغيرها فضل هذا الصحابى الجليل. حين تتناول سيرته بالإجلال والتقدير.

كان أنصار النبى ﷺ فى المدينة يعاملونه على حداثة سنّه كما يعاملون الزعماء. حتى إنهم قالوا قولا نقلته الكتب القديمة والحديثة معاً، قالوا: «لو استطعنا أن نشترى لقيس لحية بأموالنا لفعلنا». ومعنى هذه العبارة أن قيساً كان أَجْرَدَ، ولم ينقصه من صفات الزعامة من كرم وجود، وشجاعة وبسالة، واقتحام وجُرْأة فى عرف أبناء زمانه سوى «اللحية» التى كان الرجال يتوجون بها وجوههم، كإشارة لنضج صاحبها.

ولعل إشارة الرسول ﷺ إلى بيت قيس بن سعد لأعظم دليل وأصدق شاهد على عراقة هذا البيت وتمسكه بالقيم الأصيلة للإسلام والعروبة معاً. لقد قال الرسول عنه.

«إن الجود شيمةُ أهل هذا البيت».

ولعلَّ رأْيَ قيسٍ نفسه وفى قدراته تمدنا بدليل آخر يوضح ملامح وسمات هذا الصحابى الجليل الذى يتفجر حيلة، وذكاءً ومهارة، لقد قال عن نفسه. وكان صادقاً: «لولا الإسلام، لمكرْتُ مكراً لاتطيقه العرب»!.

نقول: كان صادقاً فيما قاله عن نفسه، والدليل ما تمدنا به أحداث حياته، فمثلا كان مع الإمام علىٍّ كرم الله وجهه ضد معاوية بن أبى سفيان فى معركة صفين، وكان يخطط للمواجهة بشكل قد يودى بمعاوية ومن معه فى ساعات، غير أنه كان يرجع إلى نفسه متفحصاً ما ذهبت إليه حيلته وذكاؤه، فيجدها من المكر السَّيىء الخطر، وهنا يتذكر قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1] فيستنكر ما قد فكر فيه، ويتوسل ويستغفر. ولعل معاوية وأصحابه قد استفادوا من مثل هذه القيم التى كان يتسلح بها أمثال قيس بن سعد وإمامهم علىٍّ بن أبى طالب، فكان معاوية بما جُبِلَ عليه من دهاء ومكر يقنَصهم من فضائلهم.

وفى إسلام قيس بن سعد لَدَليلٌ آخر على نُبْل وفضيلة هذا الشاب فضلاً عن أسرته، فها هو ذا أبوه سعد بن عباده يُدنيه من مجلس النبى ﷺ ويقدمه له قائلا: «هذا خادمُك يارسول الله»، فيدنيه منه الرسول ﷺ ويُباركه، ويُعلى من شأنه ومكانته إلَى درجة أنه كان من المقربين إليه، وهو ما أشار إليه الصحابى أنس بن ملك قائلا: «كان قيس بن سعد من النبى ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير».. وهى مكانة لا تحتاج إلى شرح أو تفسير، فالرسول برؤيته الثاقبة كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدرك قيمة انضمام هذا الشاب الواعد إلى الإسلام فى بداياته، فليست أخبار هذا الشاب فى الجاهلية ببعيدة عن الأذهان. هذه الأخبار

(١) سورة فاطر ـ من الآية ٤٣.

التى تسجل كيف كان قيس يعامل الناس بذكائه الإنسانى، فكانوا لايحتملون منه وَمْضة ذهن واحدة.

حتى كانت المدينة وما حولها لا تحسب حساباً لدَهاء أحد مثل دهاء هذا الشاب..

غير أن قيساً بعد أن دخل تحت مظلة الإسلام ـ وصار من أشد المدافعين عنه، وقبل كل ذلك تشربت نفسه وقلبه بقيم هذا الدين الحنيف ـ أصبح لا يعامل الناس بدهائه، وإنما بإخلاصه. وكان كلما واجه موقفاً صعباً يأخذه الحنين إلى دهائه وحيلته ومكره فيعود إلى نفسه مكررا عبارته: «لولا الإسلام.. لمكرتُ مكراً لاتطيقه العرب».

وكما تقرر الكتابات قديمها وحديثها بأنه ليس هناك خصلة تفوق الذكاء عند قيس سوى خصله الجود والكرم، هذا الجود وذاك الكرم لم يكونا فطرَةً أو خُلُقاً مفطوراً عليهما فحسب وإنما كانت مكتسبة أيضاً من أهله وعشيرته التى تميزت بها بين قبائل العرب قبل الإسلام وبعده. كما أشار النبى (ﷺ) قائلا: «إن الجود شيمة أهل هذا البيت».

ففى هذا البيت، وبين هذه العشرة أرُضع قيس الجود والكرم حتى إن الشيخين أبى بكر وعمرَ قالا عن جود قيس وكرمه: «لو تَرَكْنَا هذا الفتى لسخائه لأَهْلَكَ مالَ أبيه». وعَلِمَ سعد بن عبادة بمقالة الشيخين الجليلين، فقال: «مَن يُعذرنى من أبى قحافه وابنَ الخطاب يُبخِّلان علىَّ ابنى».

ويضاف إلى خصلة الجود فى شخصية هذا الصحابى الجليل خصلة أخرى، هى الشجاعة، لتصبح من الجود صنوان لا يفترقان، أو وجهين لعملة واحدة.. وشجاعته كانت من نوع نادر يعتمد على الصدق بدل الدهاء، ويتميز بالوضوح والمواجهة، وليس بالمراوغة أو المناورة.

ويحدثنا التاريخ فينقل لنا من أمر هذا الصحابى الجليل الكثير والمثير معاً، ولعلنا نتوقف عند فترة تواجده بمصر بعد أن وَلاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب حكمها تقديراً لمكانته وقدراته التى هى وحدها تملأ هذا المكان العزيز والهام فى الدولة الإسلامية، فقد كانت مصر أثمن درة فى تاج هذه الدولة المترامية الأطراف، مصر التى كانت عين معاوية بن أبى سفيان دائماً ترنو إليها من دمشق

بالشام، ولذلك لم يكد يرى قيساً يتولى حكمها حتى جُن جنونه، وخشى أن يحول قيس بينه وبين حكمه فيها إلى الأبد، حتى لو انتصر هو على الإمام علىٍّ كرَّم الله وجهه انتصاراً حاسماً.

ومن هنا بدأ فى الدس لقيس عند أمير المؤمنين الإمام على، ويحيك له المكائد، ولعل معاوية نجح فيما أراد. وإلا فما معنى أن يستدعى على بن أبى طالب قيس بن سعد من مصر ليبلغه بنبأ عزله من الحكم.. ويدرك قيس بذكائه وفطنته أن وراء قرار الإمام على مكيدة من معاويه الذى فشل من قبل فى استمالته إليه، فيقبل قرار أمير المؤمنين راضياً، والأكثر يضاعف من ولائه لعلى حتى يرد على دهاء معاوية، هذا الولاء النابع من الاقتناع الحقيقى بأحقية على بن أبى طالب فى الخلافة دون غيره.

وهكذا لم يُشعر قيس الآخرين بأن علياً كرَّمَ الله وجهه قد عزله عن مصر، فما الولاية، ولا الإمارة، ولا الجاه، ولا السلطان عنده سوى وسائل يخدم بها عقيدته ودينه منذ وضع يده فى يد رسول الله ﷺ.. ولئن كانت إمارته على مصر وسيلة لخدمة عقيدة هذا الدين. فإن موقفه بجوار على بن أبى طالب فى معركته ضد البطلان وسيلة أخرى لاتقل أهمية عن الولاية والإمارة. وهكذا نراه قد تقبل قرار العزل راضياً مطمئناً ومعلقاً بأن هذا القرار تأخر عن موعده.. يالها من عظمه!! ونراه أيضاً يلتقى بخليفته فى حكم مصر.. محمد بن أبى بكر فيوجه نظره إلى ما يوفقه فى مهمته الصعبة فى وجود خصمين كبيرين هما معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص، حيث كانا يديران المعارك ضد على بن أبى طالب من الشام، وهو مانلمحة عند الحديث عن ولاية محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما.

لكن ماهى أسباب اهتمام معاوية بن أبى سفيان بقيس بن سعد؟ وماهى تحركاته ضده؟ وماهو موقف قيس نفسه من معاوية؟

أما الأسباب فهى معروفة، وهى اهتمامه بمصر خاصة، وإمكانيات واليها قيس بن سعد، وعداوة معاويه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، ولذلك بدأ تحركه ضد قيس منذ أن تولى حكم مصر من قبل الإمام على ضد هذا الوالى الذى كان يقول عنه معاوية فى معرض حديثه عن مواجهته للإمام علىٍّ: «إن علياً استعمل

على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو يعدل عندى مائة ألف فارس، وإنه فى موقعه هذا لأثقل خلق الله علينا، مخافة أن يُقبل علىٌّ بن أبى طالب فى أهل العراق، ويقبل قيس فى أهل مصر فأقع بينهما».

وكان قرار معاويه الذى أملاه عليه صاحبه عمرو بن العاص أن يُهادن قيس بن سعد ويُمنيه بما يشاء حتى يأمن شره، ويدس بينه وبين الإمام على، وبدأ خطته بأن كتب إلى قيس: «إنْ كنتم نقمتم على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى أثرة رأيتموها، أو ضربة سَوْطٍ ضربها، أو شتيمة رجل... فإنكم قد علمتم ـ إن كنتم تعلمون ـ أن دمه لم يكنْ يحل بكم، فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم إداً[1] فتب إلى الله يا قيس. فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافْعَلْ، وتابِعْنَا على أمْرِنا، ولَكَ سلطان العِرَاقَيْن[2] إذا ظهرتُ أنا ما بقيتَ أنت، ولمن أحببت من أهل بيتك الحجاز مادام لِى سلطان، وسَلْنى غير هذا عما تحب. فإنك لا تسألنى أمراً إلا أُوتيته، واكتبْ إلىَّ برأيك فيما كتبت به إليك والسلام».

«معاوية بن أبي سفيان»

ولم يتعجل قيس بن سعد الرد على معاوية بن أبى سفيان، لأنه يعرف مقدماً ما يهدف إليه، وآثر ملاينته إلى آخر المدى حتى يعرف كل خطته، وكتب إليه: «أمَّا ما سألتنى عن متابعتك، وما عرضت علىَّ من الجزاء فقد فهمته، وهذا أمر لى فيه نظر وفكر، وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافٍ عنك، ولن يأتيك من قبلى شىء تكرهه».

«قيس بن سعد»

ورد عليه معاوية غاضباً: «أمابعد؛ فقد قرأتُ كتابك، فلم أرَكَ تدنو فأعدك سلماً، ولم أرَكَ تُباعد فأعدك حرباً، وليس مثلى يُصانع المخادع ومعه عدد من الرجال، وبيده أعنة الخيل، فلأ ملأنها عليك ياقيس خيلا ورجلا..».

«معاوية بن أبى سفيان»

وهنا رد عليه قيس بن سعد: «أما بعد؛ فإن العجب من اغترارك بى، وطمعك فىَّ، واستسقاطك رأيى، أتسومنى الخروج من طاعة أَوْلى الناس بالإمْرة، وأقولهم

---

(١) إداً: أى أمرا عظيما.

(٢) العراقين أى البصرة والكوفة.

للحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم إلى رسول الله وسيلة!؟ وتأمرنى بالدخول فى طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله سبيلا!؟ ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس!! أما قولك إنى مالئ عليك مصر خيلا ورجلا، فوالله لأشغلنَّكَ بنفسك، حتى تكون نفسك أهم إليك. . إنك لذو حظ».

«قيس بن سعد»

ويغضب معاوية بعد قراءته لرسالة قيس بن سعد ويحنق ويزداد كرهاً له، خاصة أنه فى كل مواقفه كان إلى جانب على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه. ويعزم معاوية على أمرٍ، هو أن يكيد له عند الإمام علىٍّ، ويعرض الأمر على صاحبه عمرو بن العاص. وانتهيا إلى مكيدة عبرَّ عنها معاوية بعد ذلك قائلا: «ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندى من مكايدةً كدت بها قيس بن سعد عند على بن أبى طالب، حين امتنع منى قيس، قلت لأهل الشام: لاتَسُبُّوا قيس بن سعد، ولاتدعو إلى غزوه، فإنه لنا شيعة، تأتينا كتبه ـ أى رسائله ـ ونصائحه. ألا ترون مايفعل بأهل «خربتا» يجرى عليهم أعطياتهم وأرْزاقهم، ويؤمن سربهم؟!».

وكانت «خربتا» التى يشير إليها معاوية قرية فى البحيرة، اعتصم بها عشرة آلاف مقاتل من القبائل العربية التى استوطنت مصر بعد تحريرها، وقد رفضوا البيعه للإمام على، وأرسلوا إلى عامله على مصر قيس بن سعد قائلين: «إنّا لا نقاتلك، فأبعث عمالك، فالأرض أرضك. ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى مايصير أَمْرُ النَّاس» فوافقهم قيس على ذلك، ولم يقهرهم على البيعة، لأنه رأى صواباً فى ذلك، وأن الخطأ إذا حاربهم. وهو ما أكدته الأحداث.

لذلك استفاد معاوية من المسلك السياسى من قيس بن سعد فى الوقيعة والمكيدة بينه وبين الإمام على كرم الله وجهه. وكان ماحدث من أمر عزل هذا الصحابى الجليل عن حكم مصر. .

وفى المدينة المنورة التى شب فيها مات هذا السياسى الذى روض الإسلام دهاءه.. مات قيس بن سعد الذى كان يقول: «لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة فى النار.. لكنت من أمكر هذه الأمة».

مات بالمدينة ولكن تربة مصر التى غرس فيها المبادئ والقيم لن تنكره!

* * *